اخبار

سفر المونسنيور فرنسيس پيكيت

الى بلاد ارمينية والعجم ١٦٨١-١٦٨٤

كتبها السيد اثناسيوس سفر العطار السرياني اسقف ماردين ،

مرافق المسافر وترجمانه

نشرها الخوري اسحق ارملة السرياني

٤ (تتمة)

٢٢ وصول هدايا لويس الرابع عشر الى عباس شاه العجم بواسطة المونسنيور پيكيت

وبعد دخولنا اصبهان بسنة وازيد جاء عند المونسنيور بيكيت قسيسان من باريز اسم الواحد مسيو روك والآخر مسيو سنسون. وبعد مدة جاء راهبان يسوعيان [١٦٦] من باريز وجابا الهدية التي بعثها ملك فرنسة الى الشاه (عباس) حتى يسلمها اليه المونسنيور . ولما وصلا مرضا . وكان الشاه خارجاً عن اصبهان مسافة اربعة ايام . فلما سمع بوصول الهدية ارسل الى المهندار يقول له بان يرسلها اليه . فجاء المهندار وكلم المونسنيور فجاوبه ان الهدية هي ساعات واسطرلبات فلا يمكن ارسالها الا مع احد يكون يعلم بحركاتها وهذا البادري هو معلم لكنه مريض . فان شاء الله [١٦٧] متى تعافى ترسله وصحبته الهدية. فارسل المهندار جواب المونسنيور الى الشاه . فكتب الشاه مكتوباً آخر الى المهندار يقول ان يرسل الهدية بغير معلم وعندما يتعافى المعلم يبقى يصحبها[1]. فجاء المهندار وقرأ مكتوب الشاه للمونسنيور . والبادرية ما كانوا يريدون يسلمون الهدية بل كانوا ينتظرون حتى يتعافوا من المرض . والمونسنيور كان يريد ان يرضي خاطرهم فقال المهندار اصبر لكم يوم ان شاء الله يصحون[2] ثم

١) يختبرها او يشرف عليها ٢) يتعافون

نرسلهم صحبة الهدية [١٦٨] فلم يرضَ المهمندار بل قال ارسلها مع ترجمانك وحكيمك .

ولما كان المساء بعد ما تعشينا اخذنا نتحادث بهذا الخصوص . وكنا انا والحكيم متحضرين للرواح مع الهدية . لان كل الناس كانوا يعرفوني اني ترجمان الافرنجي . والحكيم ايضاً يعرفونه . وكان يصير بذلك اكبر وقار من ان يؤدي الهدية الرهبان الغرباء الذين لا يعرفهم احد ولا يعرفون اللسان . ثم ان المونسنيور قال : انا ما انا إفرنجي . هولاء الذين جابوا الهدية هم الجية . وكان يقول ذلك من باب الطاعة وتكريماً للرهبان اليسوعيين . فقلت له يا سيدي [١٦٩] كيف تقول انك ما انت إفرنجي واليوم لك ازيد من سنة في اصبهان والشاه يعمل مصرفك مثل باقي الافرنجية . وجميع الناس يعرفون انك انت الافرنجي . فقال لي من باب الحكمي : انت ما يحق لك التكلم بهذا الوجه . وبعد ما تحادثنا مدة قمنا صلينا جميعنا كالعادة وراح كل واحد الى حجرته ينام . وباكراً اجتمعنا في الكنيسة كالعادة لنحضر القداس نحن وكل ناسنا وكان المونسنيور جاثياً امام المذبح وكلٌ منا جاثياً في مكانه . فلما قام المونسنيور قمتُ حتى اشلحه [١٧٠] فروته واغسل يديه كالعادة فاحتضني وقبلني قائلاً : اغفر لي لاجل الله . فلما نظرته هكذا سقطت عاجلاً على رجليه قائلاً : يا سيدي انت السيد وانا العبد . فالواجب ان اطلب انا الغفران . فكيف تسألني انت الغفران ؟ ولم تتكلم معي كلاماً يكدر خاطري . بل انا تفاضلت بالكلام ؟ فاحتضني واقامني من عند رجليه وهو يبكي . فلما نظر الحاضرون هذا الاتضاع العظيم تحيروا جداً . ثم امرني ان اروح بعد سماع القداس الى المهمندار واطلب منه دواباً فرجعت وربطت ثلاثة احمال الهدية وحملاً لاجل الخيمة والشراب ودابتين للخدام . ونحن ركبنا خيلنا وظلمنا . اما المهمندار فبعث معنا ستة انفار من الجند حتى يرافقونا لا للخوف من الدرب بل اكراماً للافرنجي . فسرنا وبعد اربعة ايام وصلنا الى جندمسان حيث الشاه وعساكره . فاستقبلونا حالاً وانزلوا الهدية في خيمة الوزير الثاني . اما الشاه فكان مع النساء في الحيم فأعلموه بوصولنا فارسل الخصيان عاجلاً يأمرونا حتى ننقل الاحمال

[١٧٣] فتحناها واخرجنا الهدية واصلحنا كل شيء وطقّسناها[1]

وكانت الهدية ساعة كبيرة كصندوق . وساعة مدوّرة كالكرة . ومرايا من بعض معادن اذا انتصب قبال الشمس يحرق كل ما يجتاز امامه . وكانت ايضاً اسطرلابين من نحاس ملطوخ بذهب احدهما للسماء والآخر للارض. وثمانية كتب كبيرة مطبوع فيها دولة ملك فرنسة وعظمته وسراياته وبساتينه وركوبه[2] . فحمل الخصيان جميع ذلك وادخلوها الى الشاه . ثم اعطونا مكاناً في الاوردي[3] فنصبنا الخيمة التي كانت معنا . وجعل الوزير عندنا [١٧٣] اناساً يخدموننا . وعند الغدا ارسلوا لنا صفرة كلها صحون فضيّة ملآنة من جميع المآكل . وكنا اخذنا معنا صندوق شراب فتغدينا . ووقت المساء جاءنا ايضاً صفرة احسن وفيها البلاو[4] . لانه في العجم كل ما هو طيّب يتركونه للعشاء. فبقينا يومين ثم استأذنّا الوزير ورجعنا. وبعد ثلاثة ايام وصلنا الماء الى اصبهان ودخلنا على المونسنيور وحكيناه كل ما صار . ففرح غاية الفرح.

ثم رحنا انا والحكيم الى ضيعة بعيدة عن اصبهان نحو عشرة اميال تسمى نجف آباد [١٧٤] وهناك عدة كروم فاخذنا عنباً وعملنا شراباً جيداً . وفي شباط او آذار عمل الشاه ايضاً ضيافة وصاح جميع الاجية وبعث الى المونسنيور اربع خلع غالية الثمن : الواحدة منديل اي شاش منسوج بقصب وحرير . والثانية قبا كله منسوج بقصب ذهب . والثالثة بالايوش اي جوخة كلها منسوجة بقصب فضة . والرابعة حزم يسمونه چار قاري منسوج بحرير وقصب. ثم بعث لي انا خلعتين اخذ من الاربع واخص : الواحدة قبا داري منسوجة فيه وردات قصب . والثانية ايضاً جوخة مثل القبا . وبعث [١٧٤] للحكيم ايضاً خلعتين مثلهما . وللبادرية اليسوعية مثلها . وكل ذلك جابه المهمندار . ثم دعانا للغدا.

وفي الغد بعث لنا خمس افراس كالعادة واخذونا بالطقس[5] المذكور اعلاه .

---

١) رتّبناها ٢) خيمه
٣) المسكر ٤) الارز
٥) بالنظام

وكان الشاه في ذلك اليوم قد عمل المجلس في بستانه خارج اصبهان واسم البستان «هزار غريب». فعدّينا على الجسر ودخلنا ضمن البستان ونظرنا الطقس كالاول. ثم ادخلوا المونسنيور وادخلوني انا عند الشاه فسلمنا عليه. ثم اعطى الشاه مكتوباً[1] الى المونسنيور [١٧٦] وقال له ابعث هذا المكتوب الى محبنا ملك فرنسة وسلم عليه. وان كان له خدمة يأمرنا لنقضيها. فدعا له المونسنيور واستكثرنا خيره ورجعنا بغير غدا. لان العادة لا يتغدّى الاجي بعد المكتوب. وايضاً من ذاك اليوم وصاعداً لا يعطونه المصرف. فبقينا نصرف من كيسنا.

٢٣ ذهاب المونسنيور پيكيت للسفر الى همذان

ثم أمرني المونسنيور ان اهتم بكل ما نحتاج اليه لنسافر الى همذان وهي بين اصبهان وبغداد. ولما كان خميس الفصح عمل المونسنيور حسّا[2] في البيت فجمع ثلاثة عشر ارمنياً وغسل ارجلهم وتصدق عليهم [١٧٧] بالثياب والفلوس وخدمهم على المائدة كالعادة.

وبعد العيد ارسلني المونسنيور الى الاوردي حيث الشاه واعطاني مكتوباً للوزير يطلب فيه اولاً: ان يبني اليسوعيون كنيسة في ايروان. ثانياً: لكي يعطيني أمراً بان لا يظلم الحكام للقاتوليقيين الذين في نقشوان. ثالثاً: الاذن لي حتى اذا عبرت في ارضه عند رجوعي من باريس يكرموني. رابعاً: توصية عليّ لحاكم همذان. فاخذت المكتوب وركبت من بكرة وقصدت الاوردي [١٧٨] واخذت معي خادماً. فوصلت نصف النهار وقابلت الوزير وسلّمته المكتوب. فقال لي ارجع اليّ بكرة. فرحتُ ثمتُ تلك الليلة في احد البيوت. وثاني يوم بكرة رحت اليه. فقال لي ارجع الى الاجي وانا ابعث له كل ما طلب فرجعت وكان نهار الاحد. ولما وصلت الى البيت لم اشاهد المونسنيور ولا الخدام ولا الناس فسألت البواب فقال انه راح الى جولفة

١) اطلب نصّ هذا المكتوب في المشرق ٢٣ [١٩٢٥] : ٢٦٦

٢) لفظ سرياني يراد به غسل الارجل يوم خميس الفصح

فركبت اليها ووصلت الى البيت الذي كان فيه فرأيت جماعة الفرنج مجتمعين [١٧٩] وقد تغدّوا وجلسوا يتحادثون مع المونسنيور . فدخلت عليهم وسلّمت وقبّلت يد المونسنيور فاجلسني جنبه واخذ يسألني عمّا صار . فاخبرته ففرح وباركني . ثم اخذني وقمنا تمشّينا في البستان وهو يتكلم معي . ثم ركبنا ورجعنا الى البيت .

وبعد يومين ارسل الوزير الامور التي طلبها المونسنيور . وأمر ان يعطونا عشرين جملًا لرفع أثقالنا وأحمالنا وثمانية خيل للركوب . ولكنها لم تكن تكفينا [١٨٠] . فرحتُ اشتكريتُ عشرين فرساً اخرى ليركب بقيّتنا ويحتمل باقي احمالنا . وتحضّرنا للسفر . وبينما نحن كذلك جاءنا بادري كبّوجي من تفليس اسمه جوستيانس ارسله الخان يطلب من المنسنيور ليروح يسكن تفليس . لان الخان لمّا سمع عن فضائله اراد ان يسكن عنده . فامتنع المونسنيور وقال انه ما بقي يمكن ان اجيءْ الى هناك . وكان للخان اخٌ في اصبهان [١٨١] اسمه لورساب مرزا وكان صاحب المونسنيور يبعث اليه هدايا ويعرّف الخان بفضائله . وزاره المنسنيور فاضافه واكرمه . وانا والحكيم كنّا نزوره في الجمعة مرة .

ولنرجع الى كلامنا . فلمّا دنت ايام سفرنا كان قد فضل عندنا من الحطب والفحم والتبن والشعير والخشب والخوابي واشياء كثيرة لم يمكن تحميلها . فاعطى المونسنيور كل ذلك الرهبان الكبوجيين . وجاء بعض فقراء ايضاً اخذوا من التبن والحطب وغير ذلك [١٨٢] . ولم يكن المونسنيور يتكلّم بل يقول لي اتركهم يأخذون لانهم فقراء . وكان الذي اخذه الكبوجيّة والفقراء يساوي اكثر من مائة قرش . والمونسنيور لم يحسب ذلك شيئاً ابدًا . ثمّ صاح الخدّام وكلّمهم وقال : الذي يريد يجي معي فليجيءْ والذي لا يريد فليقل . فالذين لم يريدوا يجون طلبوا منه دستورًا فاعطاهم حقّهم وانعم على كل واحد بكم عاشي . واما الذين ارادوا المجيءْ فكتب اسماءهم وكانوا ستة . ثم ان المهندار جاب لنا رجلًا حتى يرافقنا [١٨٣] . ويصير مهندار الدرب ويحضر كل يوم عشرين جملاً مع ثمانية افراس من الضياع التي في الدرب . مثلما أمر الشاه . ثم احضر لنا الجمال والخيل . امّا الارمن المحبّون للمنسنيور فلما سمعوا امر

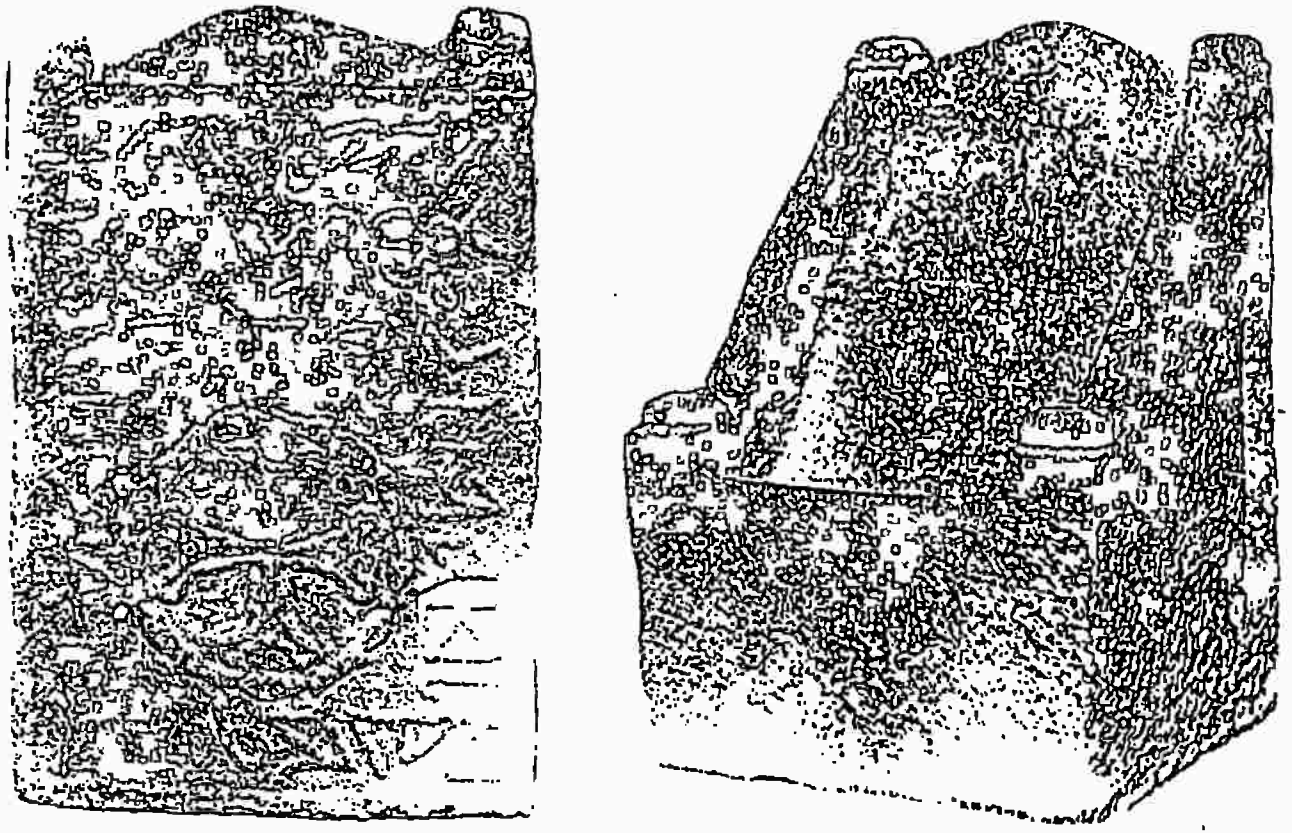

الرسم ٨

١ – منبر اسفلي من الحجر اكتشف في تدوي وهو يرقى الى نحو السنة ٥٠٠

٢ – صورة الكتابة السريانية المنقوشة على ظهر المنبر

(عن صورة لمصلحة الآثار في بيروت)

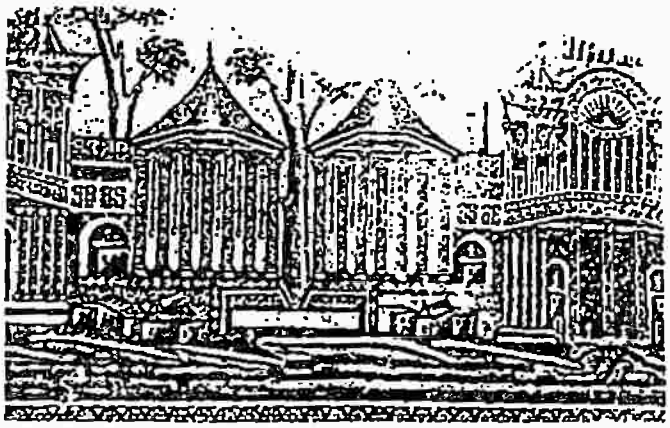

الرسم ٩

مشهدان من مشاهد القيامة في الجامع الاموي في دمشق (القرن الثامن)

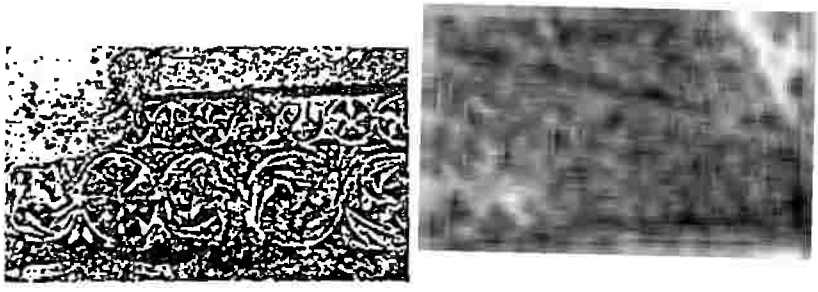

الرسم ٤ – قطع من سطوح الاعمدة في البارة

(عن كتاب الاب ماتره *A travers les villes mortes de Haute Syrie*, pl. XLVI, 2-3)

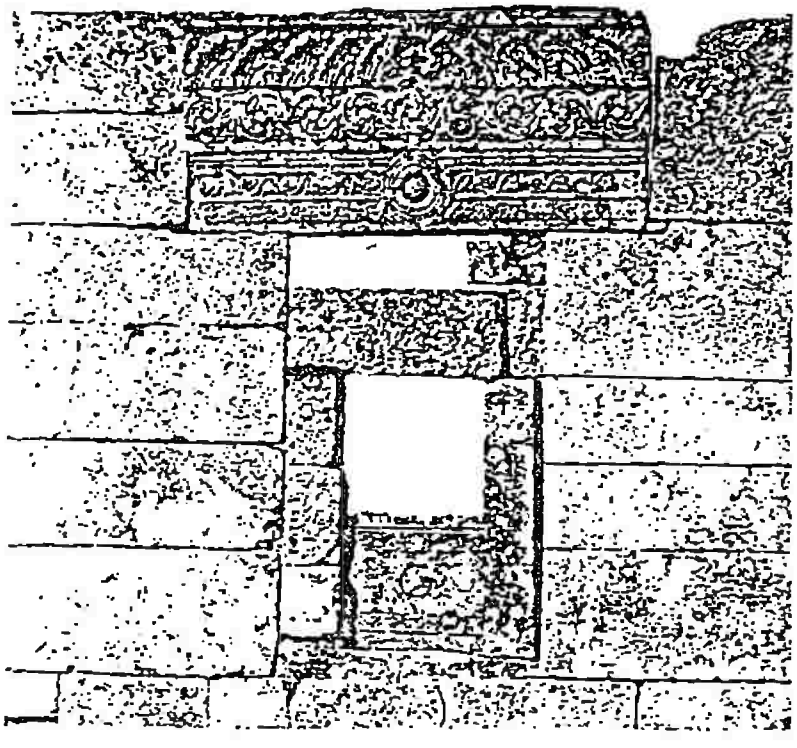

الرسم ٥ – عتبة الباب في بَموده

(عن الكتاب نفسه pl. XVII, 2)

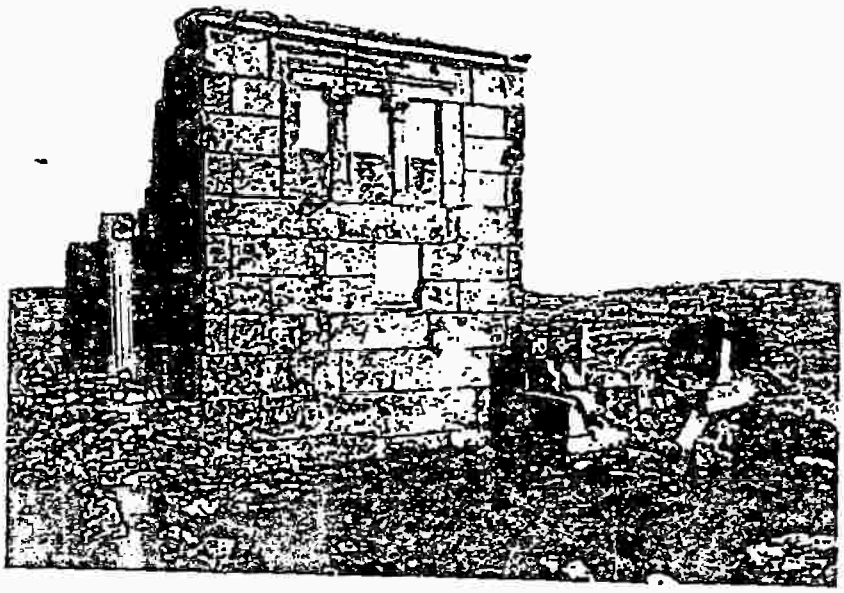

الرسم ٦ – قصر ذو كشك في كفرنابو
(عن الكتاب نفسه pl. XXXV, 2)

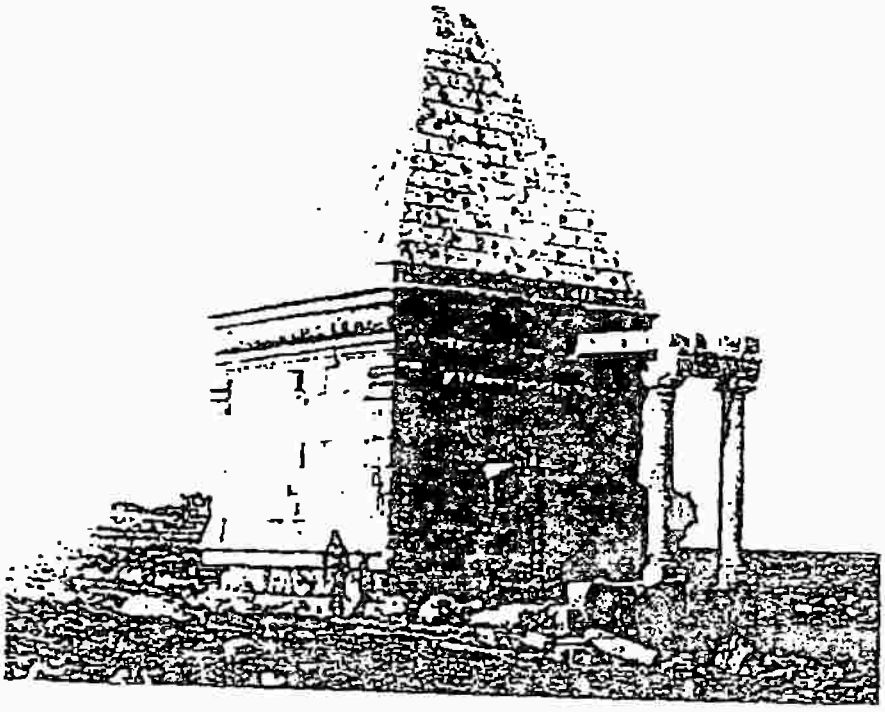

الرسم ٧ – قصر هيرودس ...
(عن الكتاب نفسه ...)

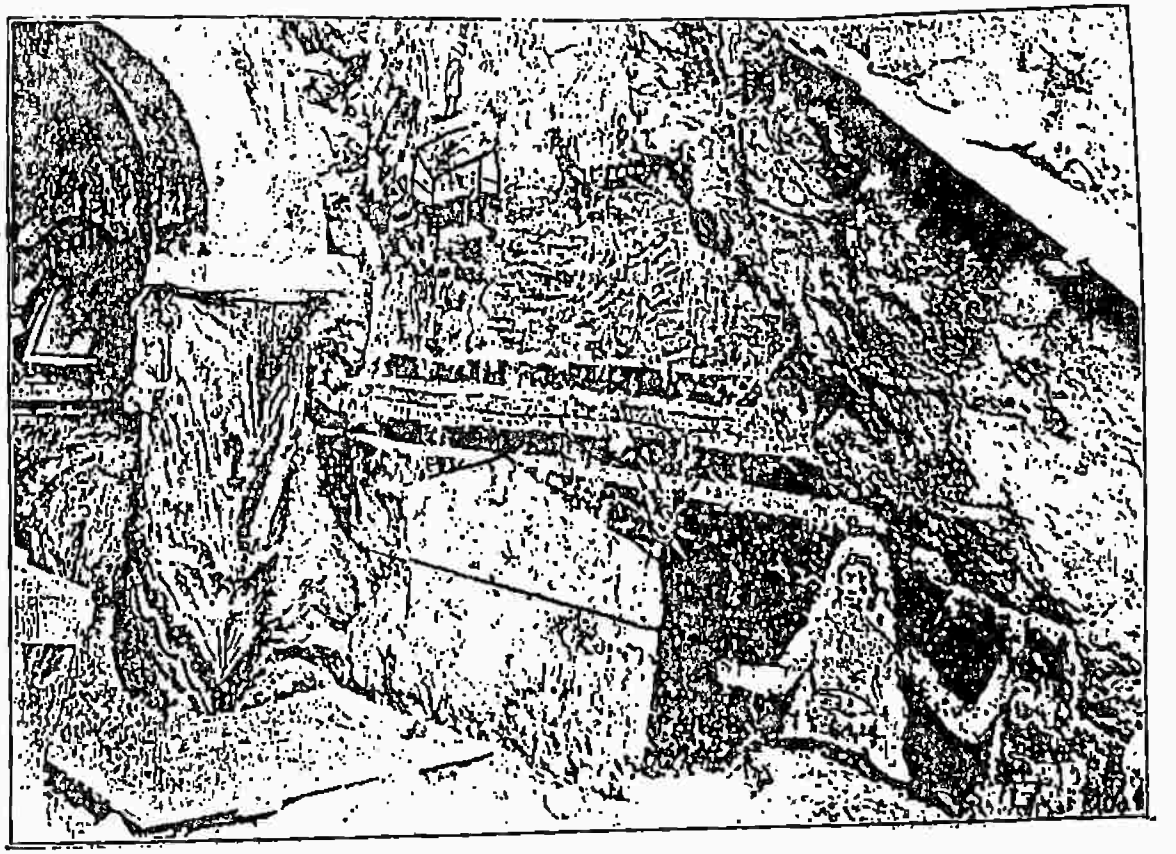

الرسم ١٠ – كنيسة دورا - العالمية الراقية الى السنة ٢٥٦ ، في حالتها كما اكتُشفت

(عن *The Excavations at Dura - Europos, Fifth season*)

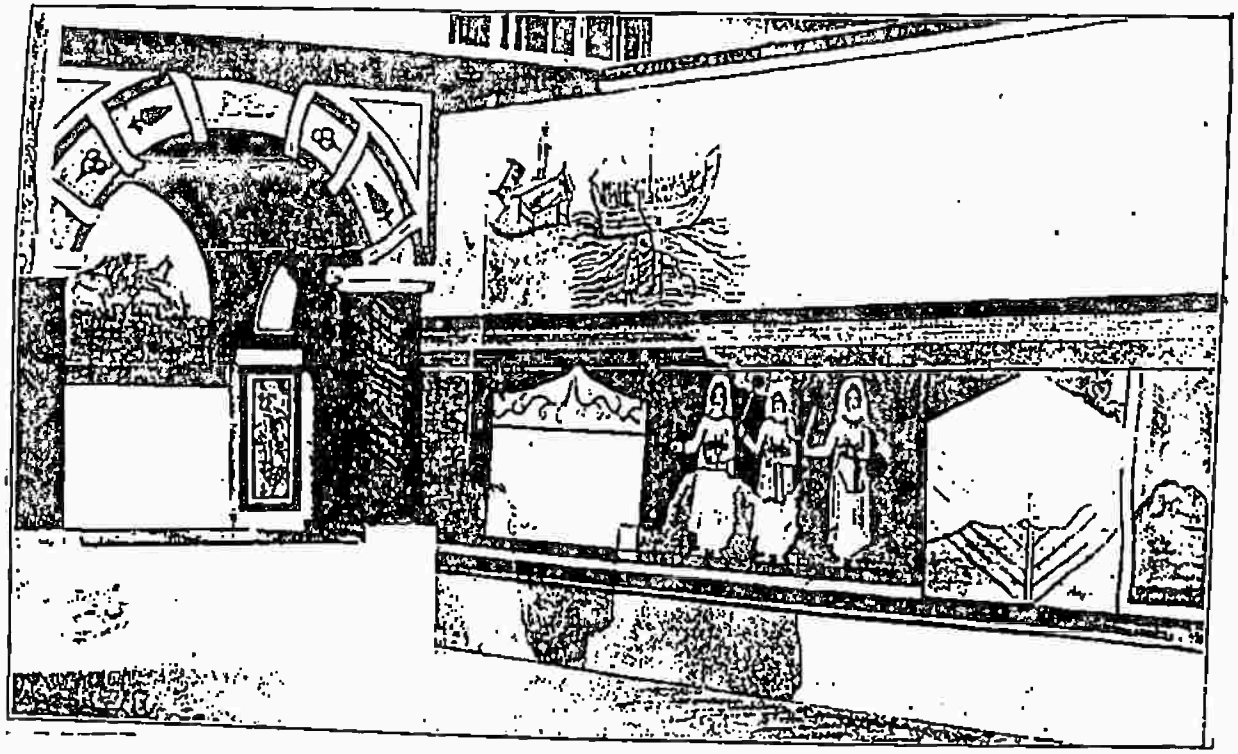

الرسم ١١ – صورة الكنيسة المذكورة كما كانت ، وقد ظهرت على جدرانها صور المشاهد المذكورة في المقال (ص ٥٨٥)

(عن *The Excavations at Dura - Europos, Fifth season*)

رواحنا بقوا كل يوم يجون اليه ويزورونه ويتباركون منه ويتأسفون على فراقه.

٢٤ خروج المونسيور بيكيت من اصبهان

ثم حملنا ليلة احد الفنطقوسطي[1] من اصبهان وطلع معنا جميع الفرنساويين الذين في جولفة وساروا معنا مقدار ميلين ورجعوا. ونحن سافرنا وبتنا خارج اصبهان في كروان سراي وبقينا هناك يومين لبينا عدلنا[2] جميع اشغالنا [١٨٤]. ثم ارتحلنا قاصدين همذان. وكانت جميع ايام مكوثنا في اصبهان اثنين وعشرين شهرًا واياماً. وكنا برفقة المونسيور: مسيو روك ومسيو سنسون ومسيو وينسا الحكيم واندري الطبّاخ وانا الفقير وانطون الصبيّ الارمني الترجمان بعدي وستة خدّام ارمن وبادري يسوعي رائح الى ايروان ليسكن هناك مع خادمه. وبادري دومينكاني من البندقية كان في بلاد الهند. وبادريان آخران من دومنكان نقشوان ورجل من نقشوان. هولاء جميعهم كانوا برفقة المونسيور.

[١٨٥] امّا المهمندار الذي رافقنا فكان رجلاً خائناً عمل معنا نقصاً عظيماً. ففي ذات يوم نزلنا في كروان سراي جانب الضيعة وكانوا ملزومين ان يعطونا الجمال كأمر الشاه. فراح هذا الخائن واخذ منهم دراهم كروة الجمال وقال لهم انا اقفي[3] جمالاً للاجي. ثم ركب فرسه وهرب مع خادمه. امّا الجمال التي معنا فكنا اطلقنا سبيلها ظانين ان هذه الضيعة تعطينا جمالاً كباقي الضياع. ولمّا كان المساء ونحن مرتاحون ننتظر الجمال لنحتمل كعادتنا ونسير في الليل لئلا يتعب المونسيور في الشمس [١٨٦] لم تحضر الجمال. فركبت مع آخر ورحتُ الى الضيعة في الساعة الواحدة من الليل وسألتُ عن الرئيس فلم يعلمني احد عنه. بل قالوا لي نحن قد اعطينا حقّ الجمال للمهمندار. فقلتُ واين هو المهمندار؟ قالوا لا نعلم. فبعثتُ الخدّام فراحوا جابوا لي الرئيس واثنين آخرين. فأخذتهم وحبستهم داخلاً حتى يجيبوا لي جمالاً. فاسرع اهل الضيعة جميعهم حتى فتكاولوا[4] معنا. وكان اصحابنا والخدّام خارج الباب فتكاولوا معهم بالحجارة

---

١) النصرة في ٢٠ ايّار ٢) ربتنا
٣) أحصّل ٤) تكوّلوا وانكالوا اي اقبلوا عليهم بالضرب والشتم

ورموا اثنين من الخدّام . فلمّا سمعتُ [١٨٧] خرجت خارجاً وسألتُ ما الخبر ؟ فقال لي الخدّام قد كبسونا وقتلوا منا اثنين . قلتُ اين هما ؟ قالوا هما مطروحان على الارض . قلتُ خذوهما وادخلوا كلّكم الى داخل واغلقوا الباب ففعلوا . فلما قربتُ منهما لقيتهما ميتين بدون نَفَس . وكانت الساعة الثانية من الليل . ثم شطوا المشاعل وجاء الحكيم يجس المجروحين فلقينا ان قد اصابتهما الحجارة في راسيهما والدم يجري منهما وهما كالموتى . ثم اني احضرتُ رئيس الضيعة ورفاقه [١٨٨] وقلت لهم أهكذا تعملون في ناس الاجي وتقتلوهم ؟ وأمرت الخدّام ان يجلدوهم . فجعلوا يجلدونهم وهم يستغيثون .

وكان المونسنيور في كل ذلك جاثياً في حجرته يصلّي . فلمّا سمع هذا الضجيج بعث صاحبي[1] وقال ما الخبر ؟ وما هذا الصياح ؟ فحكيته بكلّ ما صار من الاول الى الاخير . فنهض مرعوباً لمّا سمع عن موت الخادمين وجاء اليهما ونظرهما واخذ يبكي . اما رئيس الضيعة ورفاقه فلمّا رأوا المونسنيور بدأوا يستغيثون ويقولون اننا بلا ذنب . ما هذا الجلد الذي يجلدوننا ؟ فقال لي المونسنيور لا تخلّ احد ينكد[2] عليهم [١٨٩] فكّ رباطهم واتركهم حتى نبصر كيف ينتهي الامر . ثم اخذ يتكلّم مع الحكيم عن الخادمين ورجع الى حجرته وجئنا للصلاة . واخذ الحكيم يعالج المريضين وكان يسكب في فمهما بعض اشربة . وبعد ساعة افاق الواحد من غفلته ورجع الى عقله وتكلّم ففرحنا . ورحت قلت للمونسنيور ففرح وزاد في الصلاة . وبقي الثاني على حاله بغير كلام . اما الرئيس ورفاقه فاوصيتُ ان يحبسوهم فالتمسوا قائلين ابعث منا واحداً حتى يروح يفتّش عن جمال ونحن الاثنين نبقى محبوسين [١٩٠] . فشاورت المونسنيور فقال لي افعل ما يقولون . فبعثتُ واحداً منهم الى الضيعة وتقاتل معهم على فعلهم . وانا تلك الليلة لم اقدر انام من خوفي على الخادم . بل كنت اروح داخلاً اجسّ عليه . وقرب الصبح افاق على ذاته ورجع الى عقله وتكلّم . فاعلمت المونسنيور ففرح وشكر نعم الله .

ثم جاء بعض ناس من الضيعة معتذرين متوسلين الى المونسنيور حتى لا

---

١) استدعاني ٢) لا تدَع احداً يتعدّى

يجازيهم كفعلهم . فعفا عنهم وطيّب خاطرهم وقال جيبوا لي الجمال وانا اعطي حقها ولا تخافوا . فقالوا ههنا قريب ضيعتنا [١٩١] بميلين او ثلاثة اناس ساكنوا الخيم عندهم جمال فابعث احد رجالك ليستكري لاننا نحن فلاحون ما لنا جمال. فركبتُ واخذتُ معي خادمين ورحت الى الخيم فطلع عليَّ الاهالي بالعصي والحجارة حتى يكاولوني ظانّين اني جئت آخذ جمالهم بالجبر. فلما نظرتهم هكذا ابتدأت الاطفهم قائلًا : يا ناس اجياد انا مـا جئت اكاولكم وآخذ جمالكم بالجبر. فلو جئت لذلك لجئتُ معي اناساً كثيرين حاملين السلاح . ولكن جئتُ اكلّمكم بالمعقول [١٩٢] وأستكري جمالكم واعطيكم حقكم ههنا قبل ان احتلها . فرموا الحجارة من يديهم وجاء بعضهم يتوسلون حتى انزل عن فرسي فانزلوني وأدخلوني الى الخيمة واجلسوني . وجاء المعقولون وتكلّموا معي قائلين : اننا لمّا سمعنا عن مجيئكم هَربنا الجمال الى مكان بعيد لخوفنا . ولكن نفتش لك فان وجدنا جمالًا عند احد فبلا شكّ نرسلها لك . لان غير إلجيّة عندما يجتازون يظلمون الناس ويأخذون جمالهم بغير حقّ ويعذّبونهم . ولكن لما سمعنا عن سيدك الإلجي انه رجل [١٩٣] صالح تدمنا كيف بعثنا الجمال . ثم فتشوا ووجدوا رجلين بينهم عندهم ثمانية جمال فاحضروها اليَّ وتكلمت معهم وقلتُ لهم اريد عشرين جملاً . فقالوا ما عندنا غير هذه . ولكن في الضيعة الفلانيّة جمال كثيرة فاذا سمعوا انك تعطي الكرى فهم يتوسلون فيك . فان اردتَ ابعث لهم احدًا او رح انت اليهم . ففضلنا معهم الجمال الثمانية بثمن معلوم الى مدينة جول بايغان وهي درب يومين . وقلت لهم اي وقت تجيبون الجمال ؟ قالوا قبل المساء . واول وصولنا اليك نحتل ونرتحل [١٩٤] . فقمت حتى اركب فأمسكوني حتى اتغدّى عندهم فتغدّيت وغدّوا الخدّام . واعطوني قليلاً من السمن الطري واللبن هديةً للالجي . فركبت ورجعت وحكيتُ المونسنيور بكل ما جرى ففرح.

ثم قصدتُ الضيعة التي اخبروني عنها وطلبت من اهلها جمالًا للكرى فجاء رجل معقول وكراني اثني عشر جملاً واضافني وركب معي هو ورفيقه قاصدًا زيارة المونسنيور لمّا سمع عن فضائله . ولمّا وصلتُ حكيت المونسنيور عن

الرجال . فقال خلّ يجون . فدخلوا عليه وسلّموا وتكلّموا معه [١٩٥] وانشرح خاطرهم . وكان وقت الغدا فوضعوا الصفرة ودعوا المونسنيور للغدا فعزم[1] هذين الرجلين فتغديا معنا . وبعد الغدا قلتُ لهما كيف اكلتما معنا وانتما محرّم عندكم الاكل مع النصارى ؟ فقال لي احدهما لو كان النصارى مثل هذا الرجل لسنا نحرّم الاكل معهم . لكن هذا هو ملاك الله فكيف ما ناكل معه ؟ ولمّا كنّا نتغدّى جاء واحد من ناس الوركي باشي اعني من وزراء الشاه كان قادماً من همذان راكباً الى اصبهان . فلما نزل في الكروان سراي استدعاه المونسنيور الى الغدا [١٩٦] فجاء وتغدّى معنا . وبعد الغدا حكاه المونسنيور عن افعال المهندار . ثم احضرنا رئيس الضيعة المحبوس ورفاقه فحكموا بجميع ما فعل المهندار . فتحيّر الوزير ثم كتب المونسنيور مكتوباً وبعثه مع الوركي باشي واطلقتْ رئيس الضيعة واصحابه . وفي اول المساء جاءت الجمال كلها فدفعت حقّها وحمّلنا وارتحلنا . ودخل المونسنيور نام في التختروان . ووضعنا الخادمين المجروحين في المحافة على الجمل [١٩٧] . وانا ورفاقي ركبنا وتركنا الجمال وسبقنا الى قدّام وكان الوقت نصف الليل .

ثم جزنا على كروان سراي فاتيت بابه مسكّراً . فصحنا ليفتحوا لنا فلم يجاوبنا احد . وبينا نحن واقفون دخل فرس المهندار من داخل فعلمتُ انه داخل الكروان سراي . فدقّ رفاقي الباب قائلين افتح لنا الباب والّا كسرناه . فمن خوفه فتح الباب . فدخلنا وقلنا للبوّاب اشعل لنا الضوّ فشعل وفتشنا عن المهندار فوجدناه قد تناوم [١٩٨] فايقظناه فتمارض . فاراد رفاقي ان يضربوه فابتدأ يعتذر اعتذار كاذب . فقلت له الآن ما هو وقت الاعتذار فقد علمتَ الذي عملتَ ولكن قم اركب . فقال اتركوني انا مريض . ولكن الخدام انزلوه غصباً . ولما نظر انهم احتاطوه أمر خادمه فحمّل فرشته وركب وجاء معنا . اما المونسنيور فلم يقل له شيئاً . وبعد يومين وصلنا الى چول بايغان ومكثنا هناك يومين الى ان وجدوا لنا جمالاً ورحلنا .

ويوماً من الايام جابوا لنا جمالاً عاطلة لم تكن تصلح لحمل التختروان [١٩٩] .

(١) دعا

فاخذت جملين وسجناهما لنحملهما التخترون فخافا ولم يريدا ان يربضا . وبالجهد والضرب ربضوهما . ولما ربطوا عليهما التخترون جعلا يزعقان ويبعبعان . وكانت حوائج فرشة المونسنيور جوا . فلما اقاموهما جفلا واخذا يركضان في البرية هاربين . فانفك الجمل الخلفاني من التخترون وهرب . واما الجمل القدامي فبقي يسحب التخترون على الارض فسقطت الحوائج واندثرت . ثم ركبنا خيلنا وبالجهد العظيم قدرنا امسكنا الجمل [٢٠٠] ثم فككنا منه التخترون فوجدناه صحيحاً . ومع هذا الهرب جميعه لم ينكسر فيه شيء ابداً . فبدلنا الجملين وحملنا التخترون وركب المونسنيور وارتحلنا .

٢٥ وصول المونسنيور بيكت الى همذان

وبعد خروجنا من اصبهان بستة وعشرين يوماً وصلنا الى همذان . لاننا تعوقنا في الدرب كم يوم بسبب الجمال . والا فالدرب من اصبهان الى همذان هو خمسة عشر يوماً . فلما وصلنا الى همذان نزلنا خارج البلد في بستان الشاه وركبت انا والمهندار وقصدنا صرباشي البلد ووكيل الخان . ثم أريناه أمر الشاه [٢٠١] فقرأه وقام الصرباشي وبعض اعيان البلد ركبوا معنا حتى نفتش عن بيت ننزل فيه . فدرنا اماكن كثيرة لم تعجبني لان بيوت همذان ليست مثل بيوت اصبهان . اخيراً اعجبني احد البيوت فرجعت الى المونسنيور وصحبتي الوالي وبعض الاعيان خرجوا لكي يُدخلوا المونسنيور بالعز والاكرام . فلما وصلتُ لقيتُه بعدُ في القداس فأجلست الجماعة تحت وطلعت اليه واعلمته بكل شيء فقال خلهم يدخلون . فدخلوا وسلموا عليه وجلسوا وتكلموا معه [٢٠٢] . ثم اخذونا ودخلنا همذان ونزلنا في البيت . اما المونسنيور فلم يعجبه البيت لانه ما كان فيه مخازن كثيرة .

وبعد يومين جاء الينا مطران الارمن الذي في همذان مع بعض جماعة وسلموا على المونسنيور وفرحوا به . وبعد ما استرحنا كم يوم رحت فتشت عن بيت يكون فيه مساكن كثيرة فلم أجد . فتعصباً عني اخذت ثلاثة بيوت

١) في ١٥ حزيران ١٦٨٤

وعملناها بيتاً واحداً واعطينا لاصحابها كرة سنة. وعملنا المكان الاحسن كنيسة. اما المهندار فان القوزجي باشي[1] ارسل من اصبهان وعزله عن منصبه[٢٠٣]. لانه كل سنة كان يحصل له منه كم قرش فعزله عوض النقص الذي عمله مع المونسنيور. ثم جاء عند المونسنيور وتخضع وبكى معتذراً طالباً الغفران فأنعم عليه بتومان اعني ستة عشر غرشاً وثلاثين وسامحه بما فعل.

وكان نصارى همذان يأتون ويروحون عندنا ويسمعون الكرز[2] لان مسيو رويز كان تعلّم الارمني قليلاً. وكان كل يوم احد يعمل تعليم المسيحي في بيتنا ويحضر عندنا بعض ارمن. فلمّا سمع ذاك الشقي اسطفان المذكور اسقف جولفة الهرطوقي اشتكى الى خان همذان[٢٠٤] الذي كان في اصبهان ورشاه وقال ان الافرنج يريدون ان يعملونا ايضاً افرنجاً. فقال له ماذا تريد ان اعمل مع الايلجي لاني لا اقدر اكلمه. قال ابعث الى صوباشي نصارى همذان ان لا يترك الارمن يروحون الى بيت الايلجي. والذي يروح يمسكه ويجرمه. ثم ارسل مكتوباً الى صوباشي الارمن فعمل عليهم يسق[3] ان لا يجيء احد الينا. ومنع ان لا احد من الارمن يشرب الشراب او يبيع. فجاء بعض الارمن عند الحكيم حتى يعالجهم ولمّا رجعوا امسكهم الصوباشي وحبسهم [٢٠٥]. فرحت أفلتهم[4]. ثم جاب لنا واحد ارمني جرّة نبيذ فأمسك وحبسه ورحت أفلته. ثم كتب المونسنيور مكتوباً الى القوزجي باشي يذكر له عن اوزاع[5] الصوباشي فبعث عزله واقام غيره. وبعد ذلك بقي النصارى يأتون عندنا بلا خوف ويسمعون التعليم المسيحي. وبعد دخولنا همذان بشهر طلب مسيو وينا الحكيم دستوراً من المونسنيور حتى يروح الى الهند فرخص له فراح الى اصبهان ومن هناك الى الهند [٢٠٦] وبعد شهر[6] امرني المونسنيور ان اروح الى باريس لاودّي[7] مكتوب الشاه الى ملك فرنسة. ومن باريس اروح الى رومية. ثم كتب لي مكاتيب الى باريس والى رومية يوصي عليّ. واعطاني فرساً وخرجيّة[8] وبقيت افتش على قفل

١) الحارس ٢) الوعظ ٣) اليَسَق: المنع ٤) أطلقتهم
٥) المعاملة السيئة ٦) اي في ايلول ٧) لاحمل ٨) نفقة او مصرف

يروح الى تبريز فلم اجد. وغصباً عني قصدتُ اروح الى تزبين ومن هناك ارجع الى تبريز .

ولمّا كان يوم توجُّهِ الكروان وقت المساء بعد ما تعشينا وودّعت المونسنيور والارفاق وجثوتُ امامه وطلبت البركة فباركني وطلع معي [٢٠٧] الى خارج باب الحوش وهو يبكي وانا ايضاً ابكي واطلب منه الغفران . فقال لي انت ايضاً اغفر لي لاننا ما عدنا نرى بعضنا . فقلتُ كيف تقول هذا يا سيّدي ؟ انا ارجو ان ارجع عاجلاً واخدمك طول عمري مثلما شرطتُ على نفسي حتى اموت بين يديك . فقال لي اذهب بالسلامة ويسوع ومريم يكونان معك وفي رفقتك . ثم جثوتُ امامه وباركني وأتامني عن الارض واحتضنني واخذ يبكي وانا ايضاً ابكي والواقفون حولنا يبكون . ثم فارقته في الساعة الاولى من الليل وانا ندمان غاية الندم [٢٠٨] كيف فارقتُ هكذا رجلاً قديساً صالحاً يشتهي الملوك ان يروه ويحكموا معه .

فيا للعجب العظيم ! ويا لهذا الصبر الجسيم ! كيف اني بقيتُ معه اربعين شهراً[1] ولم اسمع منه كلمة توجع خاطري . ولم يطلع خلقه[2] عليَّ ابداً . وكانت دراهمه في يدي . وانا كنت اعمل جميع المصرف . ولم يكن يعارضني ولا يحاسبني .

فهذا الذي كتبته عن المونسنيور هو من المائة قيراطٍ قيراطٌ واحد . لاني لو اكتب فضائله في الزمان الذي كنت معه كان يصير كتاباً كبيراً جدّاً . ولكني كتبتُ هذا بعد اربع سنين[3] في رومة ونسخته من كتابي الذي كتبته في سفرتي . »

انتهى

على هذا المنوال المؤثر فارق القس سفر سيده الجليل المونسنيور بيكيت في ايلول ١٦٨٤ وارتحل الى تزبين فتبريز فبغداد فحلب بزيّ تاجر ، ناقلاً عدايا عبّاس شاه العجم الى الملك لويس الرابع عشر ، مزوّداً برسائل توصية الى

١) من حزيران ١٦٨١ الى ايلول ١٦٨٤ ٢) لم يسخط عليّ
٣) اي في السنة ١٦٨٨

ملكي فرنسة ورومية المعظّمين ، معاهداً السيّد بيكيت على العودة اليه والنهوض بخدمته مدّة حياته.

ولمّا وصل الى حلب رحّب به مار اغناطيوس بطرس شاهبادين بطريرك السريان الانطاكي وعرض عليه قبول السيامة الاسقفية على ماردين ونصيبين طبقاً لرغبة سالفه البطريرك اغناطيوس اندراوس اخيجان الحميد الاثر . بيد ان القس سفر تمنّع عن قبول الاسقفيّة يريد انجاز ما كلّفه به المونسنيور بيكيت . فما كان من البطريرك الانطاكي الّا ان صارحه بقوله له : « اعلم انك منذ قدومك الى حلب اول مرّة انتخبك سالفنا السعيد الذكر لترعى الشرذمة السريانيّة الكاثوليكيّة في ماردين وملحقاتها ، وتسعى في اجتذاب المنفصلين الى طاعة الكرسي الرسولي . فترى من الصواب ان تستأثر بهذه الغاية المقدّسة وتبذل النشاط في البلوغ اليها . والآن فاننا عازمون ان نقيمك اسقفاً على ماردين فتذهب اليها وتنجز ما نؤمله منك ».

وقف القس سفر برهةً يتردّد بين الإقدام والإحجام حتى انقاد اخيراً لامر بطريركه المغبوط الذي رقّاه في كنيسة حلب الى الكرامة الاسقفية صباح الاحد الاول من الصوم الكبير عام ١٦٨٥ وسمّاه اثناسيوس سفر ودفع اليه طبقاً للتقاليد الابويّة الستاثيقون البطريركي[1] المرذن بسيامته . ثم رخّص له ان يواصل سفره الى باريس فرومية وبعد هذا يعود الى ماردين ابرشيته .

قضى الحبر الجديد بضعة اسابيع في حلب ثم ودّع السيّد البطريرك وقصد الاسكندرونة وركب البحر متوجّهاً الى فرنسة ، يصحبه القس نعمة الله ناقد الحلبي . ولما وصل الى مرسيلية خلّف فيها القسّ المومأ اليه واستأنف السفر الى باريس وتشرّف بزيارة الملك لويس وقدّم له هدايا عبّاس شاه العجم ودفع اليه رسالة المونسنيور بيكيت . فحار الملك في امر زائره ورابه من هيئته الاسقفيّة ما رابه وانكر انه رسول السيّد بيكيت بعينه لانه شاهده بزيّ اسقف مع ان السيد بيكيت وصفه في عريضته الى جلالته بكونه قسيساً . عند ذاك أخرج السيّد اثناسيوس الستاثيقون البطريركي من عبّه ودفعه الى الملك ، فزال عنه

(١) نشرنا هذا الستاثيقون على صفحات المشرق في السنة ١٩٠٨ [١١ : ٥٦٥-٥٦٧]

الريب وقبله في بلاطه وأعزّه جدًا.

على ان عاهل الفرنسيس كان مطّلعاً على احوال الملة السريانيّة اذ كان بطريركها المقبوط قد رفع الى جلالته على اثر ارتقائه الى السدّة الانطاكية عريضةً يلفت فيها نظره السامي اليه والى ملّته. وهذه العريضة الجميلة المكتوبة بحروف كرشونيّة في السنة ١٦٨٢ قد نشرها المرحوم الاب انطون رباط اليسوعي بحروف عربية في الصفحة ١٠٦ من كتابه «الآثار الخطيّة عن الكنائس الشرقية» نقلًا عن مخطوط مكتبة باريس الاهلية الموسوم بالرقم ٤٦٢٢ وهذا نصّها:

[illegible]

«الى حضرة السلطان

«لويس سلطان فرنسة وغيرها من الممالك، المظفر في الحروب بقوّة المالك

«الى حضرة الملك الجليل بكر سلاطين المسيحيين باسرهم. نادرة الارض المسكونة كلها. رعب العصاة والاشرار. حبّ الصالحين والابرار. سند الكنيسة المسيحية. ملجا الامراء والرعايا. داود في القوّة والشجاعة سليمان في الحكمة والبراعة. حزقيا في العبودية والتقوى. قسطنطين في النجاحة والنجوى. المؤيد المنصور على اعدائه. هادم الهرطقة والبدع. مجدّد العلوم والفوائد. الصورة الحيّة للفضائل. المفخّم على جميع القبائل. حفظه الباري تعالى على ممرّ الايام. واسبغ عليه البركات وجلائل الانعام. واخضع اعداءه تحت موطئ قدميه. وزاده قبولًا في حضرته ولديه. وكان الحق تعالى سامعاً لصلواتنا ليلًا ونهارًا. ارتفاعاً لشأنه ولنا بذلك افتخارًا. آمين اللهمّ آمين نجاه ربّ العالمين

«أمّا بعده فالمعروض على جنابكم العالي الشريف. والمبدي لدى جنابكم السنيّ اللطيف. اني انا الحقير في رؤساء الكهنة بطرس بطريرك السريان الممتدة من بابل وحدودها الى اقطار مصر وما يليها ارسلنا اثنين من البادرية واحدًا من جماعة اليسوعية وواحدًا من جماعة الكبوشيين لكي يبلغوكم اخبار كنائسنا التي تزيد بنعمة الله تعالى نجمها اتفاقاً مع الكنيسة الكاثوليقية الرسولية الرومانية وليكن نظركم الاكيدي علينا بعين الرأفة والجود. وتعيننا في النية الصالحة

التي تفضّل بها علينا سيدنا يسوع المسيح لذكره المجد. الى ابد الآبدين آمين.

« وليكن معلوماً لدى عظمتكم العالية ما صنعت السريان القدماء مع الامراء الفرنساوية في محروسة القدس الشريف، والمحبة والاتفاق بغاية المودّة التي ابدوها امام السلاطين العظام الذين حكموا عليها. هكذا فالمرجو من عظمتكم ان تتفضلوا علينا باحسان انعامكم وفرق جودكم واكرامكم توصوا فينا الإلجي الذي من قبلكم في مدينة القسطنطينية عند سلطان محمد حفظه الله بعين عنايته من كيد الاشرار والمعاندين وأوصله الى أقصى درجات الفضائل وهو ارحم الراحمين. واما نحن فعائشين تحت حكمه الجميل وفائزين بستر ظله الظليل ومحميين من اعدائنا بقوة امره وسطوته. ومتنعمين بحكمه العادل في زمان دولته. وايضاً توصوا الالجي ان يكون نظره علينا ويساعدنا في جميع امورنا ومصالحنا. والدعاء.

[illegible]

[illegible] »

مكث اذاً السيد اثناسيوس سفر اياماً في باريس ضيفاً في البلاط الملكي ثم سار الى رومية حاملاً كتاباً من جلالة الملك الى الحبر الاعظم البابا انكنتيوس الحادي عشر (١٦٧٦-١٦٨٩) يشتمل على التوصية به وبنصارى ارمينية وبلاد العجم. ولما وصل الاسقف السرياني الى رومية تعرّف بالأب سبين ودفع اليه رسالة المونسنيور بيكيت صديقه الحميم المؤرخة في تموز ١٦٨٩ وفيها يقول: أكتبُ اليك بواسطة القس سفر ... أوصِ المجمع المقدّس ان يحتفي به ويكرم مثواه، فانه ربّان من العوام الشرقية قديرٌ على القاء الخطب بالعربية والتركية وقد نُدب سرارًا الى الاسقفية[1] ».

قام الاب سبين بما ارضاه المونسنيور بيكيت. وما عتم ان تشرّف الاسقف الجديد بزيارة خليفة مار بطرس ودفع اليه كتاب الملك لويس وعريضة السيد بيكيت فسُرّ الحبر الاعظم بعطفه السامي وأثنى على خدمته ونشّطه ليواصل مساعيه في سبيل الايمان المقدّس. وفي تلك الغضون فوجئ السيد اثناسيوس بخبر

(١) الآثار المطبّة صفحة ١٠٦

انتقال المونسنيور بيكيت الى الاخدار العلوية في همذان بتاريخ ٢٦ آب ١٦٨٥ فتأسف عليه شديد الاسف وانقطع الى تبييض ما كتبه عنه اثناء رحلته تخليداً لمساعيه الرسولية وحسناته المتواترة . وقد انجز كتابه هـذا النفيس عام ١٦٨٨ واهداه الى المكتبة الواتيكانية ليصان فيها على كرور الاحقاب.

وكانت عواصف الاضطهاد في تلك الاثناء ناثرة على البطريرك الانطاكي مار اغناطيوس بطرس السادس في حلب فكتب الى الاسقف اثناسيوس أن يتربص في رومية ريثما تنقشع عنه وعن شعبه سحابة النوائل والاهوال . فامتثل الاسقف لامر بطريركه المغبوط-وجال في خاطره ان يشيد ديراً في رومية يؤمّه طلبة الدعوة الكهنوتية من ابناء الملة ويتمرنون فيه على اقتباس الفضائل والعلوم وعرض فكرته الصالحة على رئيس المجمع المقدّس فتم الاتفاق على ان يسافر الاسقف اثناسيوس الى اميركة ليجمع من حسنات المؤمنين ما يوصله الى غايته المقدّسة ويسدّ حاجات البطريركية السريانية . فغادر عاصمة الكثلكة في السنة ١٦٩١ وظعن الى اسبانية فالبرتغال فاميركة فالهند وجمع خمسة وثلاثين الف سكوت رومانيّ وعاد الى رومية عام ١٦٩٦ واستغرقت رحلته خمس سنوات كاملة . واتفق ان البطريرك مار اغناطيوس بطرس السادس وصل الى رومية في تلك السنة عينها مستصحباً السيد غريغوريوس يشوع مصرشاه مطران اورشليم فوافقا الاسقف اثناسيوس سفر على انشاء دير للملة السريانية في عاصمة الكثلكة . وبناء عليه اشترى دار « رهبان اخوة الرحمة » الواقعة فوق اكمة اسكولينو بين كنيسة مار بولس اول السيّاح وبين كنيسة مريم العذراء ذات الثلج والقريبة من الطريق المؤدية الى كنيسة مريم الكبرى ، بمبلغ ستة آلاف وسبعمائة وخمسة وعشرين سكوتاً رومانياً . واشترى معها البستان والكرم المحاذيين لها . وتمّ ذلك في ٢٨ تشرين الاول ١٦٩٦ بموافقة رئيس المجمع المقدّس الذي شرط ان تُطلق الحرية لتلامذة مدرسة البروبغندا في التنزّه في ذلك البستان على توالي الازمان . ولما انتهى المشترى أطلق الاسقف اثناسيوس سفر على ذلك المحلّ اسم « دير مار افرام السرياني » . وخصص مذبح الكنيسة الوسطاني باسم العذراء « سيدة الصحة » وابتنى فيها مذبحين جديدين خصص

الاول بار افرام السرياني ملفان الكنيسة والثاني باسم مار يعقوب اسقف نصيبين . وارسل فاستحضر من بلاد سورية وما بين النهرين فئة من ابناء الملة وأخذ يلقنهم المبادئ الكهنوتية ويهيئهم للدرجات المقدسة .

وانصرف هذا الحبر الجليل علاوة على ذلك كله الى نشر كتاب «الاشحيم» بالطبع لاول مرة عام ١٦٩٦ ونسخ واستنسخ كتباً سريانية وعربية أهدى منها قسماً الى المكتبة الواتيكانية وخصص قسماً منها بمكتبة دير الشرفة . ولما توفي المفريان باسيليوس اسحق جُبَيْر[1] عام ١٧٢١ في رومية وُجهت الى السيد اثناسيوس النيابة الرسولية على الملة السريانية جمعاء . فكان يرعاها ويوطدها في الايمان الكاثوليكي بكتاباته ويعضدها بحسناته حتى وافته المنون في ٤ نيسان ١٧٢٨ ولُحد في كنيسة ديره ووضع فوق ضريحه حجر رخام نُقش عليه تاج وصليب وعكاز وحُفرت فيه كتابة سطرنجيلية ولاتينية هذا شرحها : «ههنا مدفون اثناسيوس سفر اسقف ماردين الكامل بالفضيلة . رقد بالرب في ٤ نيسان السنة ١٧٢٨ مسيحية . اراح الله نفسه في ملكوته» .

وكان ميلاد هذا الاسقف البار في ماردين عام ١٦٣٨ وارتقى الى الدرجة الكهنوتية في كنيسة حلب عام ١٦٧٨ وخدم النفوس في وطنه ثلاثة اعوام . ورافق السيد بيكيت في رحلته من ديار بكر الى ارمينية وبلاد العجم (١٦٨١ ــ ١٦٨٤) . وسيم اسقفاً على ماردين عام ١٦٨٥ وانتقل الى جوار ربه بالغاً السن الحادية والتسعين .

اما الدير الذي اشتراه في رومية فقد ظلّ في حوزة الملة السريانية سبعاً وخمسين سنة ثم بيع في السنة ١٧٥٣ وتحوّل بامر الحكومة الايطالية عام ١٩٠٧ الى مستشفى خاص بأمراض العيون . واعتنى الخورفسقوس يوسف هبرا الوكيل البطريركي يوم ذاك في رومية بنقل رفات منشئ الدير المذكور في الحين الى معبد آخر وأحضر هامته الى دير الشرفة اجابةً الى طلب الشيكنت فيليب دي طرّازي فوضعها الشيكنت في صندوقة جميلة وكتب عليها اسم صاحبها الحميد الاثر . وما برحت مصونةً الى هذا اليوم في مكتبة الدير المذكور كذخيرة ثمينة .

١) نشرنا اعمال هذا المفريان النبيل على صفحات المشرق ١١ [١٩٠٨] : ٣٨٦